مع المـــــوت ..

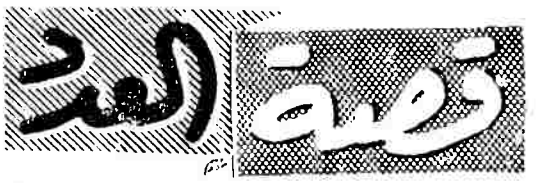

— ١ —

ـ البقية فى حياتك !

ووجم الفتى ، وأدرك الرجل ذلك فاسترسل قائلا :

ألم تعلم ؟ لقد مات أديب على أثر كتاب وصله من فلسطين يصف النهاية المؤلمة لأهله . لقد ذهبوا كلهم ضحية للعدوان الصهيونى . بين مقتول ومحروق.

واستأنف الرجل سيره بعد أن صب فى مسمع الفتى هذه الفاجعة ، وكأنه يتحدث عن برودة الجو أو غير ذلك من الأشياء التافهة .

ووقف الفتى يتأمل فحوى هذه الجملة : أديب مات! وصار ينطق بهـــا متسائلا بصوت مسموع وكأنه يحاول أن تجيبه جدران الشارع أو بعض المارين .

وتقدم خطوات ، وركب أول ترام صادفه ووقف على ناحية منه متخشباً ذاهلا عن نفسه ولم يتنبه إلا على صوت « الكمسارى » وهو يطلب منه الأجرة فنقده الدراهم وود لو يسأله هل مات أديب حقاً ، وهل لديه خبر عن ذلك ؟!

ووصل الترام إلى العتبة الخضراء فأدرك أن سبيله غـــير سبيله فتركه واستقل آخر إلى بيت صديقه .

— ٢ —

وصعد السلم بخطوات مرتجفة ، ووقف تجاه الباب يتأمل القفل الضخم المعلق عليه ، وجعل يعبث به دون أن يشعر بذلك وازداد شرود ذهنه فوجد نفسه يوازن بين قوة القفل والركزة وأيهما أصعب على اللص كسره وبقى على تلك الحال ، حتى فاجأه أحد السكان وبادره قائلا :

« تريد أهل البيت ؟ .. لقـــد خرجوا .. أديب مات وزوجته عند أبيها » ثم استأنف الصعود ..

وارتد إلى الفتى شعوره ، وضاق بهؤلاء الناس الذين يتكلمون عن موت صاحبه بهذه البساطة . وكر راجعاً إلى بيته هامد الإحساس مبلبل الخواطر وسرعان ما ألقى بجسمه المنهوك على فراشه ، وشرعت ذاكرته تطلق عليه صور الموت الحبيسة فى أعماقها ، وهو يستقبلها ويستعرضها دون إرادة .

— ٣ —

لقد كان إبان طفولته من أشد الأطفال هلعاً من الموت ومن منظر الجنازة . وكان لأول جنازة علقت بذاكرته وطء شديد على كيانه ، لقد اشتم منها رائحة الكافور ، وقد أثرت هذه الرائحة فى أعصابه المنحلة أيما تأثير فظل أياماً لا يأكل ولا يشرب إلا وتذكر هذه الرائحة وشمها أيضاً ! فغثت نفسه وكف عن الأكل والشراب .

وجاء يوم طلب منه « المطوع » وكان حينذاك فى مدرسة أهلية ، أن يذهب مع من اختارهم من الصبيان لقراءة « الختمة » على روح عميد أسرة معروفة وحاول أن يتملص ، وأصر « المطوع » على ذهابه ولم يجد بداً من الخضوع لمشيئته .

وفى أثناء قراءة « الختمة » أديرت على القارئين « القهوة الحلوة » فأبى أن يشرب ، ولكن المطوع حدجه بعينين محمرتين ـــ لأنه لا يأبى الكرامة إلا اللئيم! ـــ والمطوع كان على ما يظهر ـــ حريصاً جداً على أن يكون صبيانه غير لؤماء .

وتجرع الصبى الكأس ثم تقيأها بعد قليل وحمل إلى البيت بحالة سيئة .

وأخبر أهله بالأمر فذهب أحدهم إلى المطوع والتمس منه إعفاء ولده عن مثل هذا فوعدهم بذلك .

وفى اليوم الثانى كان المطوع جالساً على كرسيه وسط حلقة من تلاميذه ، يؤنب الصبى على ضعفه وجبنه ويختم هذا التأنيب بأن يطلب من زملائه أن يضحكوا عليه ! ولعله رأى ـ سامحه الله ـ أن ذلك أنجع وسيلة لإنقاذ الصبى من ضعفه ! ..

وتستمر الذكريات متدافعة على مخيلته ..

لقد غمر وباء الجـــدرى مدينة « الكويت » وطفق يقصف أعمار الشبان والأطفال بلا هوادة ، وأصبح الناس ولا شأن لهم إلا حمل الجنازات

إلى المقابر ، وصناعة النعوش والقيام بواجب التعازى ، وفغرت القبور أفواهها النكرية تستقبل أهلها بالمئات والألوف ، وغصت الشوارع بمواكب الموت غادية رائحة . فما أقسى تلك الأيام على ذلك الصبى الخرع ! يذهب إلى المدرسة فيرى زملاءه يتناقصون يوماً بعد يوم ثم يسمع بموت أحدهم بعد أيام . ويطوف بالشوارع فيشاهد الجنازات تطلع عليه من كل سبيل ، ويسمع الصراخ فى الدور والتكبير فى الجوامع ، ثم يعود إلى البيت فيجد أخاه قد طرحه الوباء على فراشه فلا يدرى ماذا يفعل ! ..

ويستضرى الوباء وتزداد الوفيات ويتفاقم الخطر على أخيه فيتهرأ جلده ويحور إلى كتلة من اللحم المتعفن المنتفخ!

ثم تشتد عليه وطأة المرض فيفقد الوعى ويظل يهذى ثم تتهافت أنفاسه فيخف إليه بعض الأهل ويديرون رأسه نحو القبلة ثم يجلسون حيارى . وتنطلق كلمة يائسة من بعض أعمامه فيسمعها الصبى ويتشنج .

وتستمر حالة أخيه هذه أياماً ثقيلة بطيئة، وليس بينه وبين الموت إلا شهقة.

ولقد بلغ بالصبى الذهول مرة أن اقترب من أخيه وهم أن يسأله ألا يموت ! . ولكنه خشى أن يفزع أخاه ليس إلا ..

وطالما ذهب إلى الفراش ليلا أو أرغم على ذلك فيتمدد مستوفز الأعصاب مصغياً إلى ما عسى أن يحدث ، وربما ثارت به الأوهام فانسل من فراشه إلى حيث أمه وأخوه فيرى أمه جالسة تمسح دموعها ، والقرآن الكريم فى حجرها ، فيرتد إلى فراشه باكياً من غير أن يشعر به أحد .

وكلما هم بالخروج من البيت، وقف على رأس أخيه يتأمله خشية أن يعود فلا يراه. وكم من مرة وقف فى الدهليز أثناء دخوله البيت مصيخا ، وكأن يحدث نفسه عما سيفعل لو سمع عويلا ، وربما سمع صوت دبك أو ثغاء نعجة فخيل إليه أنه صوت نادبة فظل يرتعش ويضطرب ..

— ٤ —

وتمر الأيام .

ويبلغ الحلم فيضرم هذا التطور الحيوى ثورة فى نفسه ، وثورة فى عضلاته ، وثورة فى حسه . فيشتد عوده ويصلب وتستحصد قوته وتتماسك أعصابه .

وتكون له مكنة وقوة على الجد واللعب . فيسرف على نفسه فى تقرير حيويته ونشاطه كى يعوض ما فاته من من مكانة بين زملائه. وقد أفلح إلى حد بعيد . وتحضر الموت بعض أهله فيقوم على رأسها يبل ريقها بالماء ويذكرها الشهادة وهو رابط الجأش قار النفس لا يحس بأدنى ارتباك .

وكان الفتى يلعب مع بعض أقرانه حول المقبرة. وشاهد جماعة من الناس تلم الجماجم والعظام التى نبشتها السيول الجارفة من حفائرها وألقتها فى كهوف المقبرة فاشتركوا معهم فى هذه المهمة ثم تغفلوهم وسرقوا بعض الجماجم والعظام وفروا بها لاعبين .

— ٥ —

وتختلف عليه ضروب الحياة ويتقدم به العمر فينقلب شخصا جديداً ليس له من ماضيه البعيد إلا اسمه وبعض ملامحه.

ونسى أنه كان طفلا من أشد الأطفال ضعفا ثم صار صبيا من أشد الصبيان بطراً وأشراً ، لقد عاد إنسانا جديداً بثقافة جديدة وقلب جديد .

وتغيرت نظرته إلى جميع الأشياء ومن بينها الموت .

لقد صار يرى الموت نتيجة طبيعية للحياة ، ومن السخف أن ننظر إلى الموت بغير تلك النظرة ، ومن الحماقة أن نشيع الموتى بالبكاء والنحيب، إن الحياة أعمق من الموت وعلينا أن نهتم بالحياة ونخلص لها الحب. وكل ما هو حى أجمل وأكمل من كل ما هو ميت، وصارت له فلسفة فى هذه الأمور يطول شرحها .

— ٦ —

فماذا يهيجه الآن ؟ وأين فلسفته تمنحه الرضا والطمأنينة ؟ جاهد الفتى وهو على فراشه أن يزجر نفسه عن الضعف والخور. وأن يقطع عليها سبيل الحزن بالحجة والدليل فمردت عليه ، وظل مطرقا تتعاقب على ذاكرته حالات صديقه وهو لا يستطيع فكاكاً من متابعتها وليس له إلا أن يستعرضها ويبكى

ومرت الصور مترادفة تصف صديقه فى مسكنه وملبسه ، وفى سخطه ورضاه وفى إيثاره وإخلاصه .

وأطلت عليه من بين هذه الأخيلة صورة ابنة صديقه «درية» وهى تبتسم له كعادتها وتتعلق به كى يعطيها هدية ، فغض بصره . وأخلفتها صورة صديقه وهو يوسد فى القبر ابنه الصغير ثم يخرج ليقول للمعزين لقد استراح .

ولم يمض عام واحد حتى ذهب هو نفسه ليستريح !

وما فتئت الصور والذكريات تلح عليه وهو يتابعها والليل يمضى شيئا فشيئا دون أن يدرى ، حتى رن فى مسمعه صوت المؤذن مناديا : الله أكبر الله أكبر .. لقد أذن الفجر ..

قال الفتى : الله أكبر ، أجل الله أكبر من كل كبير لأنه أعظم حياة من كل عظيم . ثم تلا الآية الكريمة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » .

وقام إلى النافذة يستروح نسيم الفجر ونور الحياة .

أحمد العدوانى